مجلة بحوث
كلية الآداب

البحث (٨)

منهج السيد علوى البحرانى من خلال (شرح الآجرومية)

إعداد

د / عيسى الوداعى

جامعة البحرين

السنة ٢٧ العدد (١٠٧) أكتوبر ٢٠١٦م

http : // Art.menofia . edu. eg *** E- mail: rifa2012@ Gmail.com

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منهج السيد علوي البحراني
من خلال (شرح الآجرومية)

د. عيسى الوداعي
جامعة البحرين

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى إماطة اللثام عن حاضرة من حواضر العلم في العالم العربي، كان لها دورها البارز بما صدر منها من نتاجٍ علمي وأدبي، امتدّ إلى أكثر من سبعة قرونٍ، وذلك من خلال تتبّع أوجه الحياة العلمية في هذه الحاضرة، والتركيز على نظام التعليم في مدارسها، ومنزلة الدراسات اللغوية في ذلك النظام، والبحث عن الأسباب التي أدت إلى تغييب ذلك النشاط العلمي، وصولا إلى الكشف عن شخصية واحد من لغوييها المتأخرين، الذي ظلّ قابعًا في زوايا النسيان، أعني السيد علوي بن سليمان البحراني (كان حيًّا سنة ١٢٥٥هـ)، وقد حاولت هذه الدراسة كشف الحجُب عنه، وإبراز ما له وما عليه من خلال دراسة كتابه النحوي الموسوم بـ(المسائل النحوية في حل مشاكل الآجرومية).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البحث اللغوي في البحرين
من خلال (شرح الآجرومية) للسيد

علوي البحراني
د. عيسى الوداعي/ جامعة البحرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة العلمية في البحرين:

يقترن اسم البحرين تاريخيًّا بالعطاء العلمي الغزير؛ ذلك بأنّ هذه البلاد عرفت حركة علمية نشطة طيلة قرونٍ متوالية، فالتعليم فيها قديم، وجذور مدرستها ضاربة في التاريخ، وتراثها العلمي والثقافي بادٍ للعيان، غير منكور، ولم يكن ذلك التراث إلا جزءا "لا يتجزأ من التراث الخليجي العام، وإنّ وراء رجالات هذا التراث وأعلامه – كما يقول الدكتور محفوظ في بحثه حول تراث الخليج – كنوزًا من العلوم والمعارف والفنون، لا يستطيع الباحث الإحاطة بها، ولا يقدر على استقصائها، ولا يبلغ الإلمام بأطرافها."[1]، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنّ البحرين كانت تمثّل الثقل العلمي الأكبر في المنطقة يومذاك، "وقد ضاهت المدن العلمية آنذاك، كالحلة، والنجف الأشرف، وقم المقدسة بعلمائها الفطاحل"[2]، كلّ أولئك جعل منها منارة علمٍ يؤمّها المتعطّشون إلى العلم والمعرفة، كما صارت مقصدًا يشدّ العلماء من الأقطار الأخرى إليه رحالهم، ومن أولئك الشيخ حسين بن الشيخ عبد الصمد الجباعي العاملي الحارثي، والد الشيخ البهائي، الذي هاجر إلى البحرين، وبقي فيها "مشتغلا بالتدريس والتصنيف، والعبادة، والتأليف في قرية المُصَلَّى، من توابع بلادنا بلاد القديم، إلى أن توفي بها لثمان خلون من ربيع الأول سنة ٩٨٤هـ."[3]

ولقد رسم البلادي (١٣٤٠هـ) بدقةٍ ما تميّزت به المدرسة البحرانية من "كثرة العلماء فيها والمتعلمين، والأتقياء الورعين، والشعراء والأدباء والمتأدبين... وكثرة المدارس والمساجد، وفحول العلماء الأماجد."[4]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد نقل البلاديّ من الحوادث ما يدلّ به على كثرة علماء هذه البلاد؛ إذ كانوا يعدّون بالمئات في كلّ عصر، فقد نقل عن (العالم الجليل الربّاني)، الشيخ علي بن العلامة المحدّث الشيخ محمد المقابي البحراني، شارح كتاب (الوسائل)، قوله: "كان *العلماء* السابقون من بلادنا البحرين في غاية من الإنصاف والتقوى، والإعراض عن الدنيا، وقد اتّفق أنّ فاتحةً أقيمت لبعض أشخاص البحرين في مسجدها المسمّى بالمشهد ذي المنارتين، فاتفق فيها حضور ثلاث مئة أو يزيدون من العلماء الأفاضل، في وقتٍ من الأوقات..."[٥]

إنّ وجود هذا العدد الهائل ممن سمّاهم بـ(العلماء الأفاضل) في يوم واحد، وفي مكان واحد إنّما يدلّ على إقبال البحرانيين على العلم، وشغفهم به، فكان من نتائج ذلك الإقبال انتشار العلم والعلماء في هذه البلاد، حتى صاروا يعدّون بالمئات في كل عصر، ولا إخالنا مبالغين إذا قلنا بأنّ في كل بيتٍ من بيوت هذه الجزيرة الصغيرة عالمًا يُشار إليه بالبنان؛ وبدهيٌّ أن نفترض أنّ العلماء الثلاث مئة الذين تجمعوا في المسجد لم يكونوا الوحيدين في البلاد؛ إذ ليس يعقل حضور علماء البلاد كلّهم لمجلس العزاء (الفاتحة)، فلا بدّ أنّ كثيرين لم يحضروا، إمّا لبعد المسافة، أو لعائقٍ آخر عاقهم عن الحضور، ولو أننا رجعنا إلى كتب تراجم الرجال فإننا واجدون ما يؤيد هذا الذي نقوله، فإنّها تغصّ بمئات الأسماء في كل عصر[٦]، على الرغم من عدم إحصاء تلك الكتب علماء البحرين قاطبة، "فكم وكم من علماء فضلاء، أتقياء، نبلاء في بلادنا البحرين لم تُذْكر أسماؤهم في البين؛ لاندراس الآثار، وتشتت أهلها في الأمصار؛ بما أصابها من الأغيار."[٧]

ولم يقتصر الوجود العلمي لأولئك العلماء على أرض البحرين حسبُ، بل تعدّاه إلى الأقطار الأخرى، القريبة منها والبعيدة، فقد "عمّرت أهلها أكثر الأطراف والبلدان، ونشروا فيها شعائر الإسلام والإيمان، فأكثر العلماء الموجودين، ومن سلف في البلدان القريبة، كالقطيف وأبي شهر، وأطراف فارس، ولنجة، ومسقط، وميناء المحمرة وأطرافها، والبصرة، وشيراز، وكثير من أطراف العراق والعجم منهم"[٨]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلا غرو والحال هذه أن يتغنّى أهل البحرين، شعراء وناثرون، بهذه الخصلة التي تميّز بلادهم، ولا غرو كذلك أن يبدوا أسفهم على تغيّر تلك الحال، يقول الشيخ سليمان الماحوزي (١١٢١هـ) ذاكرًا البحرين ومجدها العلمي[٩]:

كانت أوال مدينة العلم الذي ... فات الورى ولدى المخاوف مدّرى

من جاءها مستعصمًا بفنائها ... أَمِنَ الخطوبَ ونال ما قد قدّرا

أو زارها مسترشدًا بلغ الذي ... يرجو من العلم الغزير بلا امترا

كم معرقٍ في الفضل أشعثَ عابدٍ ... لمّا يقف عن شأوه لما جرى

ومهذّبٍ بزغت شموس علومه ... في أفقها وسحاب مجدٍ مطّرا

ومسوَّدٍ كَمُلت محاسن خلْقِهِ ... وزكا فكلُّ الصيد في جوف الفرا

ما خالطت أسرارهم ريبٌ ولا ... داناهمُ دَرَنُ الفسوقِ ولا اعترى

أما الميزة الثانية التي تُعرَف بها المدرسة البحرانية، فهي كثرة المدارس، ولا غرو فقد "أدى هذا الازدهار العلمي الواسع إلى اشتهار قرى بعينها بالعلم، ونسبة علماء كثيرين إليها، وتميزت بيوتات وأسر به هي الأخرى، فمن القرى العلمية: بلاد القديم، وجدحفص، وستره، وسماهيج، والماحوز، والمنامة، وهلتا، والغريفة، وغيرها من المدن والقرى."[١٠]، ولم تكن تلك القرى والمدن لتكتفي بمدرسة واحدة في كلٍّ منها، بل إنّ المدارس لتتعدد في القرية الواحدة بتعدد العلماء فيها؛ إذ كان كلٌّ منهم يؤسس مدرسته، ويزودها بما يضمن لها الاستمرار في العطاء العلمي، ومن تلك المدارس "مدرسة الشيخ داود بن حسن الجزيري في جزيرة أكل (النبيه صالح) بناها في بيته، وأوقف عليها أربعمئة كتاب."[١١]

وممّا يجمل ذكره في سلوك علماء البحرين، أنهم كانوا تواقين إلى نشر العلم والمعرفة أينما كانوا؛ لذا يهيئون الأجواء العلمية المناسبة، لا في مدارسهم حسبُ، بل في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قراهم ومدنهم التي يسكنونها، فقد وصف الشيخ سليمان الماحوزي الشيخ عليا العسكري بأنه "أوحد عصره غير مدافع، وله كتبٌ منها كتاب (شرح الألفية) مفيد، كثير المباحث، وهو عندي، وله حواشٍ مفيدة، ورأيت خطه في كتبه، وفي الكتب الموقوفة على أهل الماحوز من كتبه كثير، مثل كتاب (المنهاج) وكتاب (أحكام القرآن) للقطب الراوندي."[١٢]

فأنت ترى أنّ الوقف – هنا – كان على أهل (الماحوز) قاطبة، وهي إحدى قرى البحرين المشهورة، وأنّ الموثوف لم يكن إلا كتب العلماء، ولنا أن نتخيّل تأثير تلك المكتبة العامة، التي يفيد منها أهل القرية قاطبة، في الحياة العلمية والثقافية في تلك القرية.

ولم تكن تلك المدارس إلا أماكن للنشاط العلمي؛ إذ "كانت تعيش حراكًا علميًّا متميّزًا، فقد احتوت على قدر كبيرٍ من العلماء، الذين ينتمون لمسالك فقهية مختلفة."[١٣] ومن يطالع كتب علماء البحرين يجدها زاخرة بكثير من أوجه ذلك النشاط العلمي، فما يؤلف أحد علمائها كتابًا أو رسالة، إلا وجد من يؤلف في نقضها، أو إصلاح الخلل فيها، أو شرحها، أو غير ذلك من أوجه النشاط العلمي، إضافة إلى شيوع المناظرات العلمية بين العلماء في تلك المدارس، وما تقتضيه تلك المناظرات من استعمال الجدل، والأخذ والرد، وقد أثبتت كتب الرجال بعضًا من تلك الحركة العلمية، مثل مناظرة الشيخ داود بن شافيز البحراني للشيخ حسين بن الشيخ عبد الصمد الهمداني، التي ذكرها صاحب اللؤلؤة[١٤].

وقد تغنّى الأدباء بتلك المدارس والقرى العلمية، فخلّدوا ذكرها، فقد ذكر السيد عبد الرءوف الجدحفصي (١٣١٠هـ) بعض مدارس البحرين، فقال[١٥]:

جدّحفصٍ فيها التقى والمعالي ... وهي دارٌ للعلمِ والآدابِ

ليتَ عنّي لا أُبْعِدَت جدّحفصٍ ... فهي عندي أجلُّ كلّ الرحابِ

ويقول في موضع آخر[١٦]:

يا أبا أصبعٍ نعمتِ صباحًا ... حيثُ كنتِ المحلَّ للأخيارِ

وسموتِ على قرايا أوالٍ ... بسماحٍ ورفعةٍ وفخارِ

وكمالٍ وعزّةٍ وجلالٍ ... وبهاءٍ وعفّةٍ ووقارِ

وعلومٍ وحكمةٍ وصلاحٍ ... وانتصارٍ للدينِ واستنصارِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

د/ عيسى الوداعي

كم تقيٍّ مهذّبٍ أريحيٍّ ... طاهرِ الفرعِ فيكِ زاكي النجار
ما حوت مثلكِ المفاخر إلا ... جدّحفصٍ لا نجدُ أو ذو قارِ
والديار التي تقاصر عمّا ... قد حوته ذو النثر والأشعار

توبليٌّ لا أبعد الله عنّي ... توبليًّا وليت كانت جواري
ما أرى غير ذي الثلاث ديارًا ... منبع العلم معدن الأبرار
فعليها الصلاة تترى متى ما ... قد تجلّت للناس شمس النهار

ولعلّ ممّا يميّز المدرسة البحرانية كذلك نزوع كثير من الأسر إلى تلقي العلم والتخصص فيه؛ لذا برزت ظاهرة (الأسر العلمية) التي يتوارث أفرادها العلم جيلا عن جيل، وإنّ بعض تلك الأسر يمتد وجودها العلمي لمئات السنين، كعائلة العصفور، والغريفي، والقاروني، وغيرها، ممّا حدا بالمؤرخ البحراني المعاصر الدكتور سالم النويدري أن يضع كتابًا في أسر البحرين العلمية، يتتبع فيه أخبار رجالات تلك الأسر.

النظام التعليمي ومنزلة الدراسات اللغوية فيه:

لا يختلف النظام الأساسي في المدرسة العلمية البحرانية، ولا مناهج التدريس فيها عن مثيلاتها من المراكز العلمية المشهورة في النجف، أو القاهرة، أو غيرهما؛ لأنّ الهدف من الدراسة في تلك المراكز واحدٌ، فإنها جميعًا تسعى إلى تخريج الفقهاء القادرين على استنباط الأحكام الشرعية؛ وقد وجد رواد تلك المدارس أنّ هدفهم لا يتحقق إلا "بمعرفة المقدمات الست، وهي الكلام، والأصول، والنحو، والتصريف، ولغة العرب، وشرائط الأدلة - أي المنطق – والأصول الأربعة وهي الكتاب، والسنة، والإجماع، ودليل العقل."[١٧]

ومن أجل ذلك عُنِيَت تلك المدارس بما يصقل هذه الملكة في نفوس الطلاب، إذ يبدأون "بدراسة مجموعة من العلوم الأولية العامة، التي تساهم في تأسيس قاعدة علمية متينة في ذهن الطالب، تتيح له الاطلاع على مختلف العلوم الإنسانية بشكل مجمل، وتمكنه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهم واستيعاب مناهج المراحل اللاحقة، وتسمّى هذه المرحلة بمرحلة (المقدمات)، وهي تضم النحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق، ودروسًا مبسّطة في الأحكام الشرعية الفقهية."[١٨]

وتتبوّأ الدراسات اللغوية في المدارس الدينية مكانًا مرموقًا؛ فلا غنى للفقيه، أو المفسّر، أو الأصولي عن فهم تراكيب اللغة وإمكاناتها النحوية والبلاغية، وقد عبّر الطبرسي في كتابه (مجمع البيان)، وهو من أكبر مصادر المدرسة البحرانية، عن ذلك بجلاء حين رأى أنّ "الإعراب أجلّ علوم القرآن؛ فإنّ إليه يفتقر كلّ بيان، وهو الذي يفتح من الألفاظ الأغلاق، ويستخرج من فحواها الأعلاق، إذ الأغراض كامنة فيها، فيكون هو المثير لها، والباحث عنها، والمشير إليها، وهو معيار الكلام، الذي لا يبين نقصانه ورجحانه حتى يعرض عليه...فكل من عرف العربية والإعراب عرف فحواه، ويعلم مراد الله قطعًا."[١٩]

وهذا ما يفسّر الاهتمام بدراسة النحو في تلك المدارس؛ إذ "وُضِعَ منهجه على ثلاث مراتب: ابتدائيّ، ويتمثّل بكتاب (الآجرّومية)... ومتوسط، ويتمثّل بكتاب (قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام... ونهائي، ويتمثّل بكتاب (ألفية ابن مالك)... وحيث قد شُرِحَت تلك الأرجوزة من أكثر من شارح، فإنّ بعض الحوزويين أساتذة أو طلابا قد يختارون شرح ابن الناظم، فيما يختار آخرون شرح ابن عقيل. وللتوسّع في دراسة المصطلحات النحوية يدرس بعض الطلاب كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام."[٢٠]

والحقّ أنّ المتتبّع لأحوال العلماء في المدارس العلمية سواء في العراق أو البحرين سيجد أنها لم تكن تلتزم بقائمة الكتب التي أوردها البهبهانيّ في الاقتباس السابق، وإن كانت من ضمن الكتب المرشّحة للدراسة؛ ذلك بأنا نجد أساتذة المدارس وشيوخها يضعون كتبًا ومقدّمات من تصنيفهم، ويوجهون المبتدئين إلى دراستها، وهو ما فعله – على سبيل المثال – الشيخ سليمان الماحوزي؛ إذ كتب رسالة، اختصر فيها العلوم التي يحتاج إليها الطالب، فقال في مقدمتها: "هذه نقايةٌ من عدة علوم، يحتاج الطالب إليها، ويتوقف كلّ علمٍ دينيٍّ عليها، والله أسأل أن ينفع بها، ويوصل أسباب الخير بسببها."[٢١]

وفي هذه (النقاية) أو قل المذكرة عرض الماحوزي، بعبارةٍ موجزةٍ مركّزةٍ إلى علم أصول الدين، وعلم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه وأصوله، وعلم الفرائض، وعلم النحو،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلم الصرف، وعلم المعاني، والتصوف. وكان يبدأ بتعريف العلم، ثم يذكر أهم مسائله الأصول، وما يتفرع عليها من مسائل.

غير أنّ الباحث في سيرورة المدرسة الدينية في البحرين، سيفجؤه عدم الإشارة إلى الإنتاج اللغوي البحراني؛ إذ لم تشر كتب التراجم إلى كتاب لغوي لعلماء البحرين إلا نهاية القرن الثامن، حين ذكرت "إسماعيل بن إبراهيم بن عطية البحراني، صاحب (الأسرار الضافية في شرح الكافية)، فرغ منه في جمادى الثانية سنة ٧٩٥هـ"[٢٢]، وتأتي الإشارة الثانية بعد قرنين من الزمان تقريبًا، حين تشير كتب التراجم إلى الشيخ يحيى بن حسين بن عشيرة البحراني (بعد ٩٦٧هـ)، الذي صنّف كتابه المشهور (بهجة الخاطر ونزهة الناظر) في الفروق اللغوية، بل إننا لم نعثر على من نوّه باتصاله بالعلوم اللغوية في ترجمته قبل الشيخ الفقيه العالم المتكلم، الأديب اللغوي، ناصر الدين راشد بن إبراهيم بن إسحاق[٢٣] المتوفى سنة ٦٠٥هـ، فقد "كان هذا الشيخ فقيهًا أديبًا متكلّمًا لغويًّا ديّنًا"[٢٤]، وبعد قرنين، كذلك، نجد هذا الوصف يُلصَق بالشيخ أحمد بن عبد الله المتوّج (٨٢٠هـ)، فقد جاء في (رياض العلماء) أنّ ابن المتوج "كان عالمًا بالعلوم العربية والعلوم الأدبية"[٢٥].

وإذا نحن تأمّلنا هذه القضية، فسنجد أنفسنا أمام احتمالين، يمكن أن يفسّرا عدم بروز الإنتاج اللغوي في المدرسة البحرانية:

أما أولهما فأن يكون الدرس اللغوي غير معتنى به في المدرسة البحرانية، أو يكون من العلوم الهامشية التي لا تحظى باهتمام العلماء، غير أنّ الواقع لا يُسْعِدُ على تأييد هذا الاحتمال؛ فالمعروف من كتب القوم، ومناظراتهم التي وصل إلينا بعض أطرافها أنّهم كانوا على معرفة تامّة، وتضلّع بالعلوم اللغوية، سيّما النحو والبلاغة، ويكفي للتدليل على ذلك الوقوف على الجهد اللغوي الكبير الذي قدّمه الشيخ ميثم البحراني (٦٩٩هـ) في كتابيه: شرح نهج البلاغة، وتجريد البلاغة، فقد ناقش في شرح النهج كثيرًا من المسائل النحوية والبلاغية مناقشة تدل على رسوخ قدمٍ في هذه العلوم، وما كان ذلك ليتأتّى له لولا الاهتمام بالدرس اللغوي في تلك المدرسة، ومن هنا رأى بعض الباحثين أنّ أول ما يتبادر إلى الأذهان في شخصية الشيخ ميثم هو أنه لغوي؛ ذلك بأنّا إذا "أردنا أن نقيّم (كذا) الشيخ ميثم من خلال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مؤلفاته التي وصلتنا، ربّما يمكننا القول بأنّ اهتمامات الشيخ ميثم كانت مقصورة على علوم اللغة، والعلوم العقلية."[٢٦]

وحتّى لا نكون ممّن يلقي القول على عواهنه، فإنّا نسوق من شرح النهج أمثلة؛ لتكون دليلا على عمق التناول اللغوي في المدرسة البحرانية، فقد تناول في مقدمة الشرح مباحث عدّة، بدأها بمباحث الألفاظ، وقد رتّبها على قسمين: الأول في دلالة الألفاظ وأقسامها وأحكامها، والثاني في دلالة اللفظ على المعنى، وكان من أبحاث القسم الأول ما سمّاه (حقيقة الاشتقاق) الذي بدأ بتعريفه قائلا: "الاشتقاق أخذ أحد اللفظين من الآخر؛ لمشاركة بينهما في الاشتمال على المعنى، والحروف الأصلية. وأركان الاشتقاق أربعة:

الأول اسم موضوع لمعنى، والثاني: مسمّى آخر له نسبة إلى ذلك المعنى، والثالث: مشاركة بين الاسمين في الحروف الأصلية، والرابع: تغيير يلحق الاسم الثاني، إما في حروف فقط، أو في حركة فقط، أو فيهما معًا. وكل واحد من هذه الأقسام فإما بالزيادة وحدها، أو بالنقصان وحده، أو بهما."[٢٧]

وقد عرض لفائدة (إلا وإنّما) في موضع آخر من المقدمة، فقال: "إنّ (ما وإلا) إذا دخلت على الجملة كان المقصود بالحصر فيه هو ما يلي (إلا) سواء كان مرفوعًا، كقولك: ما ضرب زيدًا إلا عمرو، أو منصوبًا كقولك: ما ضرب زيدٌ إلا عَمْرًا، وهكذا إن كان المنصوب حالا، أو ظرفًا.

فإن تأخر مثلا الفاعل والمفعول معًا عن (إلا) فالمقصود هو ما يليها أيضا، كقولك: ما ضرب إلا زيدٌ عمروا، وكذلك لو قدّمت المفعول على الفاعل فهو المقصود، وهكذا حكم المفعولين، كقولك: لم أكسُ إلا زيدًا جبّةً، فالذي يلي (إلا) هو المقصود بالتخصيص. وهكذا المبتدأ والخبر أيّهما أخّرته عن إلا فهو المراد بالتخصيص، كقولك: ما زيدٌ إلا قائمٌ، فالمراد تخصيص هيئة القيام، دون سائر الأحوال، أو: ما القائم إلا زيد، فهو تخصيص لزيد دون غيره."[٢٨]

وإنّما أطلنا في التمثيل ليُعلَم أصالة البحث اللغوي في المدرسة البحرانية، وبهذا يندفع الاحتمال الأول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأما ثاني الاحتمالين فأن يكون علماء البحرين وفقهاؤها قد أخذوا اللغة، وبرعوا فيها، لكنّهم لم يؤلفوا فيها شيئًا مستقلاً؛ لانصرافهم إلى الفقه، وغيره من العلوم الشرعية، التي تعدّ الهدف الأكبر في المدارس الدينية، في حين اشتغل باللغة جماعة من غير الفقهاء، وصبّوا جلّ اهتمامهم عليها، وقد تكون لهم مصنفاتهم اللغوية، وإنّما لم يُذكروا في كتب التراجم؛ لأنهم لم يكونوا من رجال الإجازات، ممّا يعني إهمال ذكرهم، وعدم تتبع ما كتبوا في اللغة.

وللتدليل على هذا الاحتمال، نقول: إنّ أخذ البحرانيين اللغة، وتلقيهم علومها من البيّنات التي لا تحتاج إلى دليل؛ ذلك بأنّ من شأن الطلاب في المدارس الدينية دراسة النحو والصرف مذ أيام الصبا، فهي أول ما يجب عليهم إتمامه، وقد ذكر الشيخ يوسف العصفور (١٨٦ هـ) ذلك حين قال: "ثمّ بعد ذلك لازمت الدرس عند الوالد – قدس سره – إلا أنه لم يكن لي يومئذٍ رغبة تامة؛ لغلبة جهالة الصِّبا، وقرأتُ على الوالد كتاب قطر الندى، وأكثر ابن الناظم، وأكثر النظّام في التصريف."[٢٩]

فأنت ترى أنّ هذا (الصبي) قد خضع لدراسة كتابين في النحو، وآخر في الصرف، في وقتٍ لم تكن الرغبة في الدرس قد تولّدت بعدُ في نفسه؛ فما بالك بما سيكون عليه الحال حين تأخذه الرغبة في العلم، فينصرف إليه انصرافًا تامًّا؟

ولا يقتصر الأمر على دراسة النحو حسبُ، بل إن المنتسبين إلى تلك المدارس يجهدون أنفسهم في دراسة الكتب اللغوية والنحوية المعروفة، وقد أفدنا ذلك من ذكرهم إيّاها في أثناء إجازاتهم، ويكفي أن نذكر الكتب اللغوية التي يرويها الشيخ عبد الله السماهيجي بسندٍ يتصل بمؤلفيها، فهو يروي كتاب الصحاح للجوهري، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت، كما يروي كتاب الجمهرة وباقي مصنفات ابن دريد، وكتاب الغريبين للهروي، ومجمل اللغة لابن فارس، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، والفصيح لثعلب، وديوان الحماسة لأبي تمام.

ومن كتب النحو والتصريف والعروض، يذكر السماهيجي أنه يروي ألفية ابن مالك، وكتب ابن الحاجب وجميع مصنفاته، ولمع ابن جني وعدة من مصنفاته، كما يروي كتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجواليقي، وكتب الخطيب التبريزي، وكتب أبي علي الفارسي، وابن السراج، والزجّاج، والمبرد، والمازني، والجرمي، والأخفش، وسيبويه،والخليل بن أحمد، ثمّ ختم ذلك بقوله: "ولو حاولنا ذكر كلّ طريق إلى كل من بلغنا من المصنفين، والمؤلفين لطال الخطب."[٣٠]

وإذا ما وُجِد من المشتغلين بالعلم من لم يتضلّع في العلوم اللغوية، عُدّ ذلك من المطاعن العلمية عليه، وتجد أصحاب التراجم ينصون على ذلك، كما فعل الشيخ الماحوزي حين عرض لترجمة الشيخ أحمد بن محمد الأصبعي، فقال: "وحكى لي جماعة أنه كان قليل البضاعة في العلوم العربية والعقلية، وحُكي لي أنه لم يقرأ في النحو إلا شرح الملحة."[٣١]

وإذ قد علمنا اهتمام أولئك الأعلام بالدرس اللغوي، أمكننا معرفة السبب الذي حال دون وصفهم بما يتصل بعلوم اللغة، فهم إنّما يوصفون بأشهر ما برعوا فيه، واشتُهِروا به، فهذا الشيخ ميثم البحراني، المتقدم ذكره، ما وصفته كتب الرجال باللغوي، ولا بالمتصل بعلوم اللغة على الرغم من علوّ كعبه في اللغة، وغزارة البحوث اللغوية التي ساقها في أثناء شرحه نهج البلاغة، وقد اكتفت تلك الكتب بوصفه بـ"الفيلسوف المحقق، والحكيم المدقق، قدوة المتكلمين، وزبدة الفقهاء والمحدثين، العالم الرباني...إلخ"[٣٢]، وهذا إنْ عنى فإنّما يعني أنّ كتب الرجال لم ترَ الشيخ ميثمًا قد تمحّض لعلم اللغة؛ لذا لم تذكره في عداد اللغويين، وما قيل عن الشيخ ميثم ينطبق على من عاصره ومن سبقه من العلماء، كما ينطبق أيضًا على العلماء اللاحقين، فقد أهملت كتب التراجم صفة (اللغوي) أو (النحوي) عن أكثر العلماء، ولم تشر إليها لا من قريب ولا من بعيد، على الرغم من تأليف أولئك في النحو، كما نجد في ترجمة الشيخ عبد الله السماهيجي، المتقدم ذكره، ذلك بأنّ له "رسالة في مسائل المضمرات في علم النحو، تسعين مسألة... والرسالة الموسومة بـ(الكافية) في النحو، إلا أنها لم تكمل."[٣٣]

أمّا احتمالنا بأن يكون من علماء البحرين من تخصص في علوم اللغة، ولم يكن من الفقهاء، فله ما يؤيده من شواهد التاريخ، فقد ذكر الشيخ سليمان الماحوزي، (١١٢١هـ)، في عداد أساتذته الشيخ حسنًا الخطّي، فقال مترجمًا إيّاه: "من جملة مشايخي في العلوم العربية الأديب، النحوي، الحَفَظَة، الفقيه الشيخ حسن بن محمد بن يحيى الخطّي، وكان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنحى من عاصرته، وأحفظهم للعلوم العربية وغيرها، حتّى أنه كان يحفظ أكثر شرح الجامي للكافية، وألفية جمال الدين بن مالك، ومنظومة الشيخ تقي الدين الحسن بن علي بن داود الحلّي في الفقه وغيرها، إلا أنّه كان كثير الهزل والمجون، ومن ثمّ كان ساقط الجاه، عادم الصيت. ومن لسانه ما سمعته منه في أيام استعمالي عليه، في التبجّح والإعجاب بإتقان النحو والعربية، قال: إنّ النحو قد مازج لحمي ودمي حتى أنّ بولي نحو. وله من هذا القبيل أشياء كثيرة."[٣٤]

ولعلك تنبّهت إلى هذه العناية بالنحو، حتّى ظنّ الرجل أنه يبول نحوًا، ولسنا نظنّ أنّ هذه العناية بالنحو لم تنتج أثرًا علميًّا، لكنك لست واجدًا لهذا النحوي، أعني الشيخ حسنًا ذكرًا في تراجم الرجال؛ لعلّة خلقية ذكرها تلميذه هنا، وهي كثرة الهزل والمجون، ولعلةٍ أخرى ذكرناها آنفًا، وهي أنه لم يكن من الفقهاء الذين تروى عنهم الإجازات، وتلك علّة أخذناها من قول الشيخ علي البلادي (١٣٤٠هـ)، فإنّه بعد أن عدّد مصادر كتابه (أنوار البدرين) علّق بقوله: "وما ذكره هؤلاء الأعلام منهم (يعني من علماء البحرين) غيض من فيض، وقطرة من بحر؛ لأنّ أكثرهم إنّما تعرّضوا لمشايخ الإجازات، وغيرهم قليلا بالعرض، وأهملوا الأكثر؛ إمّا لعدم معرفتهم، أو لعدم الوقوف على تراجمهم، أو لعدم اندراجهم في مشيختهم وإجازاتهم، وكذلك مصنّفاتهم ذكروا منها بعضًا على جهة التمثيل، لا الحصر والتطويل."[٣٥]

وجليٌّ أنّ الذين كتبوا الإجازات إنّما هم من الفقهاء، لذا كان اهتمامهم بالفقهاء، دون غيرهم، وهذا شأن أصحاب كلّ صَنْعَة، فهم إنما يهتمون بأمر من يشترك معهم في الصنعة، ويهملون الباقين، وقد تنبّه البلادي إلى ذلك، فقال في آخر ترجمة السيد علوي بن السيد إسماعيل البحراني، وهو أحد شعراء البحرين (من معاصري صاحب السلافة، المتوفى سنة ١١١٨هـ) معقّبًا على ما ذكره صاحب (سلافة العصر) وصاحب (تتمة الأمل) من ترجمة هذا الشاعر: "ولم يذكر السيدان، صاحب السلافة، وصاحب التتمة للأمل له ولا لغيره مصنفًا، كما هو الأكثر مع أكثر العلماء، وإنما الأهم عندهما ذكر أدب الرجل، وأشعاره المستجادة، وأقواله الحسنة، ولو كان هذان السيدان يذكران تلك المصنفات والرسائل، والمؤلفات حفظًا لها عن العدم، وإزالة لها عن شبهة عدم القدرة لكان أولى."[٣٦]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويُضاف إلى عدم وقوع اللغويين البحرانيين في طريق الإجازات عاملٌ خارجي آخر؛ فإنّ تقادم الزمان، وتتابع الحوادث على البحرين وأهلها، ضيّع تراث أولئكم العلماء، ولم يُبْقِ له أثرًا، وتلك حال يستوي فيها علماء البحرين أجمعون، إلا القليل الذين شذّوا عن هذه القاعدة، وقد وجدنا البلادي يشير إلى هذه العلّة في أكثر من موطن في كتابه، فإنّه اعتذر عن عدم تضمين تراجم الرجال بعض العلماء المتأخرين بقوله: "وكذلك المتأخرون عن أعصارهم، لم نقف على من تصدّى لذكرهم، ولا من تشرّف بنشر فخرهم؛ لتفرّقهم في الأمصار، وبعدهم عن الديار... والحال أنّا لم نعرف منهم إلا القليل؛ لاضمحلال الآثار، والبعد عن الديار، بما وقع فيها من الوقائع والأغيار، وفي أكثر الأعصار."[٣٧]

ويقول في موطن آخر: "وكم وكم من علماء فضلاء أتقياء، نبلاء في بلادنا البحرين، لم تُذْكر أسماؤهم في البين؛ لاندراس الآثار، وتشتت أهلها في الأمصار، بما أصابها من الأغيار."[٣٨]

وما هذه الأغيار التي يشدّد البلادي على ذكرها إلا تلك الحوادث المريرة التي تعرّض لها علماء هذه البلاد، من تقتيل، وتشريد، وإفقار، وتجويع، وتحريق لمكتباتهم، التي تحوي مصنّفاتهم، ومصنفات غيرهم من العلماء، وتلك حالٌ نقلها بدقة الشيخ يوسف العصفور، أحد أساطين العلم في هذه البلاد، بوصفه واحدًا ممن ذاق مرارة تلك (الأغيار)[٣٩].

السيد علوي البحراني وكتابه (المسائل النحوية في حلّ مشاكل الآجرومية):

وقبل الخوض في شخصية البحرانيّ ومنهجه في كتابه المذكور، رأيتُ أن أفرد للحالة السياسية والاجتماعية في عصر البحراني حيّزًا، يمكن من خلاله تسليط الضوء على ذلك العصر؛ لما لذلك من أهمية في كشف شخصية المترجم له، والعوامل التي أدت إلى بروز أثره العلمي على تلك الصفة.

الحياة السياسية في عصر البحراني:

لم تسعفنا المصادر التي أرّخت للسيد علوي البحراني بذكر تاريخ مولده، ولا تاريخ وفاته، غير أنّا نعلم أنه عاش في عصرٍ اتّسم بعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي؛ فقد ألّف كتابه الأول في سنة ١٢١٤هـ، أي قبل عامٍ واحد من هجوم العمانيين على البحرين، ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهجوم الذي نكّل بأهل البحرين، وخلّف فيها خرابًا ودمارًا، فنزح عنها كثيرون، واضطرّ من بقي من أهلها إلى الدفاع عنها، وعن أنفسهم، حتّى قتل في تلك المواجهات واحد من أواخر أساطين العلم في البحرين، أعني الشيخ حسين بن محمد العصفور، بعد أن "ضربه ملعون من أعداء الدين بحربة في ظهر قدمه، فمات شهيدًا منها"[٤٠] في سنة ١٢١٦هـ.

ولقد ألّف السيد علوي البحراني كتابه الثاني سنة ١٢٥٥هـ، أي في وقت النزوح الجماعي عن البحرين، ذلك بأنّ "سكان الجزر أخذوا ينزحون عنها، فالمدن كانت في حالة خراب"[٤١] وسبب ذلك أنّ الشيخ عبد الله بن أحمد رحل إلى قطر سنة ١٢٥٢هـ، "ونزل بها تطلّبًا للراحة من وعثاء الجزائر، وأقام بها سنتين يتمتع بهوائها الطلق النقي، وأناب عنه في البحرين ولده الأكبر الشيخ محمد بن عبد الله، فكثرت في تلك الأيام الفتن، وعظمت الفوضى، وتفاقم الشر، وازدادت البلوى على الرعية، وعمّ الجور، وكثرت التعدّيات من الجهلة، والسفلة، والغوغاء، وخدّام الحكام على أموال الرعية وأعراضهم، فتبدّل الأمن خوف (كذا) والأنس وحشة، والصفو كدر (كذا) فهاجر من البحرين كثير من الأهالي، وفروا إلى الأطراف المختلفة، بعضهم إلى الكويت، والبعض إلى جهات فارس، والعراق، وعمان، وغيرها."[٤٢]

ولم تكن المدة الفاصلة بين التأليفين مدة استقرار ورخاء، بل إنّ احتلال العمانيين للبحرين سنة ١٢١٥هـ حَمَلَ أمراء آل خليفة على الاستنجاد بأمير نجد عبد العزيز آل سعود لطرد العمانيين، وقد "انجلت هذه المواجهة بين الطرفين (العماني والوهابي) عن خراب هائل في البلاد، وفي هذا الخراب تعرّض كثيرٌ من الأهالي للقتل، والإذلال، والتعذيب، والشتات في البلدان المجاورة."[٤٣]

كلُّ أولئك انعكس على السيد البحراني، وبدت جلية شكواه، حين وصف ما هو عليه حال تأليف هذا الشرح، فقد عانى، كما عانى أهل البحرين، ولم تكن معاناته يسيرة، بل إنها معاناة تسلب التدبّر والتفكير، فيقول: "وليكن هذا آخر ما أردنا ذكره، وحررنا سطره... مع ما أنا فيه من تشويش البال، وتشتت الأحوال، ما يُذْهِبُ عينَ الفكرةِ أَثَرُهُ، ويذودُ الفهمَ أيسرُهُ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يكن السيّد علوي وحيدًا في الجأر بهذه الشكوى، بل إني لمستُ ذلك في كثير من المصنّفات البحرانية، التي ما تزال مخطوطة، تنتظر إقدام المحققين، ومن أولئك الشيخ محمد بن أحمد بن إبراهيم البحراني الدرازي الذي وصف في ختام رسالته الموسومة بـ(مرآة الأخبار في أحكام الأسفار) الحال التي آلت إليها الحياة العلمية في البحرين، فقال: " وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده في هذه الرسالة، ووفقنا الله لإمداده مع هذه العجالة، وأسعفنا به مع شدة السآمة والملالة، فجاءت بحمد الله سبحانه وافية بالمراد، جامعة لمسائل القصر إلا ما شذّ أو عن البال قد حاد، أو لم يرد به نصٌّ من السادة الأمجاد، مع ترادف الآفات، وتعاور العاهات في هذه الأوقات التي أشابت رءوس الأطفال، وتزلزلت لأجلها شوامخ الجبال، وأبادت العالم في بلاد أوال، محل المحن الفظيعة والزلزال، فمنها ذهب العلم بذهاب حامليه، فقد باد جلُّ أهله وعامليه، بل لا تسمع أحدًا أنه راغبٌ فيه؛ لإذلال متعاطيه ومستعمليه، وحقارة عارفيه ودارسيه؛ فليس موصوفا بالإحسان إلا من كان من عمّال السلطان، ولا محشوما إلا من كان ذا سطوة ولسان، ترى الرجل يعدّ نفسه من أهل الإيمان، معروفا بالصلاح والإصلاح في كلِ مكان، وهو جاهل في دينه، ضعيف في يقينه، يعدُّ السؤال عمّا سيسأل عنه منقصةً عظيمة، والتفحّص عمّا هو مطالبٌ بتعلّمه مثلبة جسيمة، فيقضي عمره على هذه السيرة، إلى أن يموت على غير بصيرة، نسأله سبحانه حسن العاقبة، والسلامة من هذه الفتنة والطامة.."[٤٤]

البحراني: اسمه ونسبه:

لم تسعفنا المصادر التي أرخت لعلماء البحرين بشيء كثير عن هذا الرجل، بل إني لم أعثر على ترجمة له إلا في كتاب واحد، هو كتاب (الذخاير في جغرافيا البنادر والجزاير) لمؤلفه الشيخ محمد علي بن محمد تقي العصفور، وقد نقل عنه هذه الترجمة، بزيادة يسيرة، محمد علي التاجر في كتابه (منتظم الدرين)، ونقل الترجمة كذلك الدكتور سالم النويدري في موسوعته الكبيرة، الموسومة بـ(أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حفظ لنا العصفور والتاجر اسم المترجم له، ونسبه وصولا إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم، سابع أئمة أهل البيت، فقد نقل عن كتابٍ ألّفه المترجم له نفسه في نسبه، ونسب أجداده، جاء فيه أنه:

علوي بن سليمان بن محمد بن عبد الجبار بن حسين بن محمد بن علي بن سليمان بن علي الملقب بـ(قارون الزاهد) بن ناصر بن سليمان بن محمد بن الحسن الملقب بـ(المرتضى) بن أحمد بن يوسف بن حمزة بن محمد بن الحسين بن موسى بن علي بن جعفر بن الحسين بن أحمد الملقب بـ(سند[٤٥] السادات) بن العبد الصالح إبراهيم الملقب بـ(المجاب) بن الإمام موسى الكاظم[٤٦].

وصفه والثناء عليه:

قدّم العصفور للمترجم له بقوله:"إنه أفضل ممّن تقدم وتأخر، عمدة علماء الأدب، العارف بأنساب العرب"[٤٧]، أمّا التاجر فقد قدّم له بقوله: "العالم الفاضل، الفقيه الكامل، ذو الحسب الباهر، والنسب الطاهر."[٤٨] ولقد استوقفتنا هذه النعوت التي أسبغها العصفور والتاجر على المترجم له، ودفعتنا إلى التساؤل عمّا إذا كانت نعوتًا مقصودة، يتمتع بها المترجم له، أو أنها لا تعدو كونها مبالغة من صنف المبالغات التي يسبغها بعض المؤلفين على من يترجمون لهم.

والحق أنه لا يمكن الجزم على وجه اليقين بإجابة هذا السؤال، ولكننا سنلجأ إلى القرائن المحيطة علّها تقربنا من المراد، وتوقفنا على حقيقة هذا الرجل. فلو أننا بحثنا في كتاب (الذخاير) لوجدنا مؤلفه يضفي النعوت الموحية بعلو أقدار كثيرٍ ممن ترجم لهم، ولكنه في الوقت نفسه يذكر آخرين، دون إسهاب في وصفهم، بل لعله لا يزيد على ذكر اسم من يترجم له ونسبه، كما فعل في ترجمة الشيخ علي الأحسائي، على سبيل المثال؛ إذ لم يزد في ترجمته على أن قال: "هو من تلامذة الشيخ أحمد الأحسائي، ومجاز عنه، وله كتاب في الخطب والأشعار. مات قدّس سره سنة ١٢٢١هـ"[٤٩] مما يعني أنّ النعوت التي يضفيها العصفور على من يترجم لهم مقصودة لذاتها، وليست من قبيل المبالغات، ولو لم تكن كذلك لكان كلّ من وردت له ترجمة في الكتاب قد أُسبغَ كثير من النعوت عليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وثمّة قرينة أخرى قد ترشد إلى حال الرجل، وتدل على مقامه العلمي، وهي قول العصفور: "ولم أجد من تآليفه شيئًا إلا كتابًا في نسبه ونسب أجداده" وتلك جملة تدفعنا إلى التساؤل عن العلة في استخدام الجمع (تآليفه)، وترك الإفراد، وإذا نحن لجأنا إلى تحليل هذا النص فسنقول إنّ في استخدام الجمع هنا دلالة على أنّ المترجم له معروف بكثرة مؤلفاته، غير أنّ العصفور لم يقف إلا على واحد منها، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان في وسعه أن يقول -على سبيل المثال- وجدتُ له كتابًا في نسبه ونسب أجداده، أسوة بما صنع مع غيره ممن ترجم لهم، كالشيخ محمد بن أحمد بن الشيخ غوث الحجري البحراني؛ إذ قال: "له كتابٌ في الأذكار، لم يكمل."[٥٠]

أمّا لماذا لم يقف العصفور إلا على كتاب واحد، فتلك قضية تتعلق بكل التراث العلمي البحراني؛ إذ تعرّض ذلك التراث إلى كثير من النكبات والكوارث، بعضها بأيدٍ خارجية، والأخرى بأيدي من خَلَفَ أولئك الأعلام، فقد أدت ملاحقة العلماء وتشريدهم إلى ضياع الكثير من مصنفاتهم العلمية، فأحرق بعضها، وصودر بعضها الآخر وأتلف[٥١]، وصنع جهل من خلف أولئك العلماء صنيع خصومهم، وذلك حين عرّضوا الثروة العلمية إلى الضياع، ولم يحفظوها حقَّ حفظها.

وقد يبدو العصفور واعيًا بمسألة التصنيف، فهو يضع من يترجم لهم في مواضعهم حسب ما صنّفوا من كتب، ويبدو ذلك جليًّا في ترجمة الشيخ أحمد الزاهد البحراني، المتوفى سنة ١١١٢هـ، إذ نجده يقول: "وإنّما ذكرته في حال الشعراء؛ لأنه ما صنّف في العلوم شيئًا، إلا كتاب (كذا) في المدائح والقصائد والمراثي"[٥٢].

ينضاف إلى ما تقدّم من قرائن تدل على مكانة الرجل العلمية، تلك المدة الزمنية الطويلة التي تفرق بين التأليفين المعروفين له؛ ذلك بأنّ الكتاب الذي وقف عليه العصفور كان قد أُلّفَ سنة ١٢١٤هـ، والكتاب الذي بين أيدينا أُلّف سنة ١٢٥٥هـ، وتلك أربعون سنة تفصل بين التأليفين، ولا نظنّ أنها مرّت دون أن يكون للرجل فيها مصنفات علمية، وبخاصة إذا علمنا أنه ممن لا تثنيهم الظروف الصعبة عن الكتابة والتصنيف، ونستدلّ على ذلك بالمقدمة التي قدّم بها كتابه الذي بين أيدينا، إذ يقول: "وضعتُ هذه الكلمات في شرح ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عسر من متنها، ونمّقت هذه العبارات؛ لبيان حسنها، مع ما أنا فيه من تشويش البال، وتشتيت الأحوال"[٥٣] ويؤكّد المعنى ذاته في آخر سطور هذا الكتاب فيقول: "وليكن هذا آخر ما أردنا ذكره، وحررنا سطره... مع ما أنا فيه من تشويش البال، وتشتت الأحوال، ما يُذْهِبُ عينَ الفكرةِ أَثَرُهُ، ويذودُ الفهمَ أيسرُهُ."[٥٤]

فهل يمكن أن نستخلص ممّا تقدّم أن المترجم له كان من أجلّة علماء عصره، ومن أكابر الأدباء والنسّابين؟

الحقّ أنه لا يمكن الجزم بهذه النتيجة؛ لأنّ الاعتماد على عمل العصفور وحده قد يبعدها؛ ذلك بأنه بدا متناقضًا في إحدى الترجمات، فقد بدأ ترجمة الشيخ أحمد الزاهد، المتقدم ذكره بقوله: "إمام وقته في العلوم العقلية، وأحد الأئمة في العلوم الشرعية، صاحب المصنفات المشهورة، والفضائل الغزيرة المذكورة." إذ لا يمكننا التوفيق بين (صاحب المصنفات المشهورة) وبين (ما صنّف في العلوم شيئًا إلا كتابا في المدائح).

وفي الوقت نفسه، لا يمكن الجزم بخلاف تلك النتيجة، إلا بعد الاستناد إلى حقائق تاريخية، تبدو غائبة عنّا الآن، ومن هنا يحق لنا إبداء الاستغراب من الدكتور سالم النويدري؛ إذ عمد إلى هذا الوصف، ففرّغه من معناه، واصفًا إيّاه بالمبالغة، دون دليل يقدمه، فإنه بعد أن نقل جزءا من نص العصفور علّق قائلا: "ولو جرّدنا هذا الوصف عن المبالغة في الإطراء، لما عدا المترجم أن يكون من أفاضل العلماء، ذوي المكانة المرموقة في علم الأنساب، وفن الأدب"[٥٥] ولم يقدّم النويدري الحجة التي اعتمد عليها في وصف كلام العصفور بالمبالغة، فهل وقف على تصنيف للمترجم له فرأى فيه المستوى العلمي الذي يدحض تلك الصفات والنعوت؟ أو أنه وجد من ترجم للسيد علوي ترجمةً وضعته في مكانته التي يستحقها بعيدًا عن التزيّد في النعت؟

على أني لم أفهم العلة التي من أجلها علّق النويدري على كلام العصفور بما تقدم، مع أنه ينقل في موسوعته كثيرًا من النعوت، ويثبتها لمن يترجم لهم، اتكاءً على من وصفهم بتلك الصفات!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آثاره العلمية:

ذكر العصفور له كتابًا واحدًا في نسبه ونسب أجداده، وبيّن أنه لم يجد غيره من مؤلفات السيد علوي، وأشار إلى أنه فرغ من تأليفه سنة ١٢١٤هـ.

والكتاب الثاني هو : المسائل النحوية في حلّ مشاكل الآجرومية، وهو هذا الكتاب الذي نحاول تبيان حال الرجل العلمية من خلاله.

حياته ووفاته:

لم تطلعنا كتب التراجم على شيء من حياة هذا السيد، فلم تذكر سنة مولده، ولا على أساتذته وشيوخه، ولا على تلاميذه الذين أخذوا عنه، كما أنها لم تذكر سنة وفاته، غير أنّ النويدري قال: إنه "من علماء القرن الثالث عشر الهجري، فقد كان حيًّا سنة ١٢١٤هـ" وواضحٌ أنّ النويدري اعتمد على تاريخ كتابة النسب، وأقول: إنه كان حيًّا سنة ١٢٥٥هـ، وهي سنة تأليف هذا الكتاب، ولا نعلم يقينًا سنة وفاته، رحمه الله.

المسائل النحوية في حل مشاكل الآجرّومية: دراسة وتحليل

أولا: تعريف عامٌّ بالآجرومية:

نالت المقدمة النحوية الموسومة بـ(الآجرومية) التي وضعها محمد بن آجرّوم الصنهاجي، شهرةً واسعة، غطّت أو كادت على بقية المختصرات النحوية، من مثل كتاب التفاحة للنحاس، والإيجاز في النحو للرماني، وغيرها.

ولعلّ الذي يسّر للآجرومية ذلك هو اشتمالها على القواعد النحوية، بأسلوبٍ مختصرٍ، قريبٍ من أذهان المبتدئين، بعيدٍ عن التعقيد والتكلّف، خالٍ من مسائل الخلاف، وقضايا الشذوذ في هذه القاعدة أو تلك، مع استقامة المنهج، وتدرّج المباحث النحوية.

ويبدو أنّ الشهرة التي نالتها هذه المقدمة كانت الدافع وراء توجه جمع من النحويين اللاحقين لشرح هذه المقدمة، ذلك بأنّ الآجرومية قد غدت أول كتابٍ يقدم للمبتدئين، حتى عدّ السيوطي ذلك علامة من علامات صلاح مؤلفها[٥٦]، ولمّا كانت كذلك، فقد وجد كثير من المعلمين الحاجة ماسة إلى توضيح مسائلها؛ فأخذوا يفصلون ما كان الصنهاجي يتعمّد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختصاره، ويسوقون من الأمثلة ما كان الصنهاجي يصدّ عنه، ويغوصون على شواذّ المسائل وتفريعاتها بما نأى الصنهاجي بمقدمته عنه.

ولقد أحصى الحاجي خليفة في (كشف الظنون)[٥٧] الكثير من الشروح على هذه المقدمة، ولعلّ من أشهرها:

- شرح المكودي، المتوفى سنة ٨٠٧هـ.
- شرح الشيخ خالد الأزهري، المتوفى سنة ٩٠٥هـ.
- شرح الرعيني، المتوفى سنة ٩٥٤هـ.

ويأتي شرح السيد علوي البحراني للآجرومية (١٢٥٥هـ)، من بين تلك الشروح.

موضوع الكتاب وهدفه:

في سياق تعليم المبتدئين، يأتي شرح السيد علوي البحراني للآجرومية، فقد تناول ذلك النص، بعدما وجد صعوبة لدى الطلاب في فهمه، ورأى في ذلك النص المختصر مشكلاتٍ وصفها بالعسيرة! فتتبع النصّ كلّه، شارحًا إيّاه، ومستشهدًا لقضاياه، دون الإخلال بترتيب ابن آجروم.

ولقد بيّن البحراني الهدف من شرحه في مقدمته، فقال: "إني لما نظرت إلى المقدمة، المسماة بالآجرومية، فإذا هي خالية ممّا يقرّب وصلها لأفهام الطالبين، ويحلّ مشكلها للمبتدئين، وضعتُ هذه الكلمات في شرح ما عسُر من متنها، ونمّقت هذه العبارات لبيان حسنها، مع ما أنا فيه من تشويش البال، وتشتيت الأحوال، إجابة لبعض الإخوان، والأصحاب من الراغبين والطلاب."[٥٨]

إنّ الهدف من شرح البحراني يتحدد في أمرين:

- تقريب الآجرومية من الطلاب.
- وحل مشكلاتها للمبتدئين خصوصًا.

وقد اتخذ وسيلتين لتحقيق ذينك الأمرين:

- شرح العسير من متن الآجرومية.
- وتبيان حسن عبارة الآجرومية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أثر المسائل النحوية في الدراسات اللاحقة:

يبدو أنّ المسائل النحوية قد تركت أثرًا في بعض الدراسات النحوية اللاحقة؛ ويبدو ذلك جليا في الحواشي التي كُتِبَتْ على هذه المسائل، ففيها كثير من النقاش، والرد على الشارح في بعض ما ذهب إليه، وقد جاء في بعض الردود ما يفيد تبجيلا للشارح؛ وتقديرًا لمكانته العلمية، كل أولئك يدفعنا إلى القول بأنّ هذه المسائل قد اتُخِذَتْ مادة للإقراء، وصارت مصدرًا من مصادر الدرس النحوي في ذلك الزمن.

كما يبدو أثر المسائل النحوية في شرح الشيخ آل طعان البحراني على الآجرّومية، الذي وسمه بـ(التحفة النحوية)؛ وأتمّه في سنة ١٢٩٥هـ، إذ نجد آل طعان قد أخذ من السيد علوي بعض عباراته ، كقوله في المقدمة:"الحمد لله الذي رفع مقام عباده المؤمنين"[٥٩]، وهو قريب من قول السيد علوي: "الحمد لله الذي رفع درجات العلماء في العالمين."، كما أخذ عنه تعريف الكلام دون أن ينسبه إليه، وذلك في قول آل طعان :"وحقيقة الكلام اصطلاحًا هو اللفظ، أي الملفوظ حقيقة أو حكمًا، وهو في اللغة بمعنى الرَّمي، كما تقول: أكلتُ التمرة ولفظتُ النواة."[٦٠] ، وغير ذلك من مواطن النقل عن المسائل دون الإشارة إليها.

كما يتبيّن تأثير المسائل النحوية في منهج آل طعان؛ إذ وجدناه معتنيًا بإعراب الأمثلة التي يسوقها، كما كان يفعل صاحب المسائل، غير أنّ آل طعان أسهب في إعراب الأمثلة إعرابًا تفصيليًّا، ممّا خرج به إلى حدّ الإملال في كثيرٍ منها.

مصادر المسائل النحوية:

على الرغم من تأخر زمن الشارح، ممّا يتيح له الوقوف على كثيرٍ من المصنفات النحوية السابقة، ومن ثمّ إثراء شرحه بكثيرٍ من النقاشات النحوية التي أدارها المتقدمون في بحوثهم، نجد أنه اعتمد اعتمادًا كبيرًا على مصنّف ابن هشام المصري، الموسوم بـ(شرح قطر الندى) فنقل عنه كثيرًا من العبارات نقلا حرفيًّا، أو بتغيير المثال في كثيرٍ من العبارات، أو يتصرف في النص المنقول بالاختصار، أو التقديم والتأخير، وقليلا ما كان يعزو هذا المنقول إلى مصدره الأصلي، ممّا يوهم أنّ الرأي رأيه، والكلام كلامه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مختلفًا؛ إذ لم يأخذ منه مسألة دون إسنادها صراحة إلى ابن الناظم.

والذي يبدو لي أنّ مسألة عدم الردّ إلى المصدر كانت شائعةً في المصنفات القديمة، لا بقصد إسناد ما جاء فيها من آراء إليهم، بل إنهم يسلكون هذا المسلك مع الكتب المشهورة في فنّها؛ إذ لا يخفى على من يقرأ كتبهم المصدر الذي اعتمدوه؛ لشهرته، أمّا إذا لم يكن المصدر شائعًا الشيوع الذي يحقق للقارئين معرفة ما أُخِذَ منه، فإنّ المصنف لا يجد بدًّا من العزو إليه، والتدليل على موضع ما أَخَذَ.

ولو أننا طبّقنا هذا الذي ذهبنا إليه على ما فعله البحراني، لوجدنا أنّ (شرح قطر الندى) شائعٌ معروف عند طلبة العلم، إذ يتدارسونه في مراحل تحصيلهم الأولى، فيقرأونه كلّه على أستاذٍ يشرح لهم عباراته، ويوضحها لهم، في حين يتوسّع القليل منهم بقراءة ابن الناظم، أو غيره من المصنفات النحوية، الموصوفة بالمطولات.

منهج البحراني في المسائل النحوية:

تختلف مناهج شرّاح المتون، فمنهم من يتناول المتن شرحًا بالقول، ومنهم من يتناوله شرحًا بالتضمين، ومنهم من يشرح المتن شرحًا حرًّا، وقد التزم البحراني الطريقة الثانية، وهي الشرح بالتضمين؛ لذا تماهى نص ابن آجروم في نص البحراني، وتلك طريقة تحتاج إلى كثير من المهارة، والتفنن في القول؛ حتى لا يبين خلل في النص.

ولعلّ في هذا المثال الذي أسوقه من (المسائل النحوية) ما يبين ذلك، ففي مبحث (أفعال القلوب) يقول البحراني: "وأمّا ظننتُ وأخواتها، وهي أفعال القلوب، فإنها تنصب المبتدأ والخبر معًا بعد نسخ حكمهما، على أنهما مفعولان لها، ويسمى المبتدأ معها مفعولا أول، والخبر مفعولا ثانيا.

وهي باعتبار انصراف معناها في الخبر على قسمين:

الأول: ما يفيد فيه رجحانًا، وهي ظننتُ، نحو: ظننتُ زيدًا قائمًا."[٦١]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعلك تسأل عن نص الآجرومية هنا، فلا تميزه؛ لتصيير البحراني النصين نصًّا واحدًا، ونص الآجرومية هو: " وأمّا ظننتُ وأخواتها، فإنها تنصب المبتدأ والخبر، وهي ظننتُ..."

ويلاحظ على منهج البحراني ما يأتي:

١- لقد تناول البحراني في هذا الكتاب الأبواب النحوية التي عرض لها ابن آجروم، فلم يترك بابًا إلا وقف عنده، ملتزمًا ترتيب المسائل، كما وردت في النص الأصلي، دون أن يخل بتقديمٍ، أو تأخير، أو ترك، مكتفيًا بشرح عبارة الأصل مرةً، ومستطردًا بذكر ما أغفله الأصل مرةً أخرى، ومن ذلك قوله بعد أن فرغ من شرح حروف الجر الوارد ذكرها في الأصل: "واعلم أنّ من حروف الجر ما لم يذكره المصنّف، وهي: حاشا، نحو: جاء القومُ حاشا زيدٍ، وعدا، نحو: ذهب القومُ عدا عمروٍ، وخلا، نحو: قدم الحاجُّ خلا بكرٍ، ومتى في لغة هذيل..."[٦٢]

غير أنّ ذلك لا يعني موافقته ابن آجرّوم في كلّ ما ذكر، بل إننا نجد البحرانيَّ يتعقّب ابن آجرّوم في بعض المسائل، مضعِّفًا ما ذهب إليه، ومن ذلك رفضه ما ذهب إليه الصنهاجيّ حين عدّ (ألم) و(ألمّا) من جوازم الفعل المضارع؛ إذ عقّب البحراني قائلا: "وأفردهما المصنّف بالذكر، والأصح خلافه؛ إذ هما في الأصل (لم) و (لمّا) زيدت عليهما الهمزة."[٦٣]

وكذلك نجد البحراني يعترض على ترتيب بعض المباحث النحوية عند ابن آجرّوم؛ فقال منتقدًا تقديمه المعرفة على النكرة: "وقدّم المصنّف الفرع على الأصل، في تقديمه المعرفة على النكرة؛ إذ الأصل في الأسماء التنكير، وهو مخالف للترتيب."[٦٤]

٢-اهتمّ البحرانيّ بمسألة الإعراب اهتمامًا كبيرًا؛ ذلك أنّه يردف الأمثلة بإعراب واحدٍ منها، غالبًا ما يكون المثال الأول، ويترك إعراب بقية الأمثلة، مرددًا جملة "وإعرابه كما عرفت" أو "وإعرابه كما تقدّم". ولم يلتفت البحراني في إعرابه إلا إلى المفردات، إذ يبين موقع كل كلمة من الإعراب، والعامل فيها، وعلامة إعرابها، ولم يلتفت إلى إعراب الجمل البتة.

ولعلّ الشارح كان ناظرًا إلى حال المبتدئين في الدرس؛ إذ كانوا هدف التأليف الأول، كما أشار في مقدمته بقوله: "ويحلّ مشكلها للمبتدئين."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والملاحظ أنّ البحرانيّ كان يكثر من الإعراب في بداية شرحه، لكنه أخذ يتخفّف منه حتى اختفى الإعراب تمامًا من آخر باب في الشرح، أعني باب المخفوضات، ولعلّه أراد بذلك إشعار المبتدئ بتمكّنه من الإعراب، بعد أنْ قدّم له الأمثلة المعربة السابقة.

٣- أولى البحراني مسألة الاستشهاد عناية فائقة؛ إذ أكثر من الاستشهاد بآي القرآن الكريم، فقلّما يخلو مبحث من آية يستشهد بها، غير أنه كان يستشهد بما تواتر من القراءات، ولم يستشهد إلا بقراءتين شاذّتين: أولاهما في مبحث الحال؛ إذ استشهد بقراءة بعضهم {لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل} وعلّق بقوله: "وخُرِّجت على زيادة (أل)"[٦٥]، أمّا الثانية فكانت استشهاده بقراءة ابن عامر في باب الاستثناء؛ إذ نصب (قليلا) في قوله تعالى: {ما فعلوه إلا قليلٌ منهم}[٦٦].

وقد عُنِيَ كذلك بالشواهد الشعرية، فأكثر منها، مكتفيًا بإيراد الشاهد، دون ذكر قائله، أو موطن الشاهد فيه، ودون أن يفسّر ما يحتاج إلى تفسير في لغة الشاهد الشعري.

أمّا التمثيل بالشعر فغير محدود الزمان عنده، أسوة بمن تقدّم من النحويين، فقد مثّل في (باب المعرّف باللام) ببيتٍ لابن أبي الحديد، المتوفى سنة ٦٥٦هـ، كما مثّل في (مبحث أفعال القلوب) ببيتٍ يُنْسبُ إلى ابن الراوندي، وذلك البيت هو:

هذا الذي تركَ الأفهامَ حائرةً ... وصيَّرَ العالِمَ النحرير زنديقا

وإذا كانت تلك عنايته بالشواهد القرآنية والشعرية، فإنه وقف موقفًا مختلفًا من الاستشهاد بالحديث الشريف؛ إذ لم يستشهد في الشرح كلّه إلا بحديثٍ واحد في مسألة قلب (أل) التعريف ميمًا، ذلك الحديث هو "ليس من امبر امصيام في اسفر"، وذلك أمرٌ يدفعنا إلى التساؤل عن موقف البحراني من الاستشهاد بالحديث الشريف؛ إذ اختلف النحويون في ذلك على أنحاء ثلاثة: فمنهم من منع الاستشهاد بالحديث مطلقًا، كابن الضائع، وأبي حيان، بحجّة أنه منقول بالمعنى، وأنّ كثيرًا من النَّقَلَةِ كانوا من الأعاجم، في حين مال بعض النحويين، كابن مالك، وابن هشام إلى تجويز الاستشهاد بالحديث مطلقًا، وقد وقف الفريق الثالث موقفًا وسطا، فجوّز الاستشهاد بالحديث المنقول بلفظه، ومنع الاستشهاد بما سوى ذلك، وكان السيوطي ممن ذهب هذا المذهب[٦٧].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤- أبدى البحرانيُّ اهتمامًا بذكر اللغات الواردة في اللفظ الواحد؛ ومن ذلك قوله في (لعلّ): "ومن لغات لعلَّ: علَّ، وعنَّ، وغَنَّ، وأفصحها لعلَّ."[٦٨]، وكذا قوله في (لدى) فإنّ "فيها ثماني لغات: لدى: بالألف، وفتح اللام والدال، و(لَدَن) بفتح اللام والدال، وسكون النون، و(لَدْنِ) بفتح اللام، وسكون الدال، وكسر النون... "[٦٩]

٥- كما أبدى اهتمامًا بتفسير بعض الألفاظ تفسيرًا لغويا إذا رأى فيها غموضًا، ومن ذلك تفسيره للجريب في باب التمييز؛ ذلك بأن "المراد بالجريب من الشبر إلى ثمانين ذراعًا."[٧٠] وقوله في تفسير البريد إنّ "المراد بالبريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربع وعشرون صبعة، والصبعة ست حبّات شعير."[٧١]

٦- يحتفي البحراني بالتعليل احتفاءً ظاهرًا، فكثيرًا ما يتبع الحكم بعلته، كتعليله بناء الضمائر –على سبيل المثال– فهي"مبنية؛ لشبهها بالحرف في الوضع... وقيل: إنما بنيت لشبهها بالحروف في الجمود؛ لأنها لا تثنى، ولا تجمع، ولا تصغَّر... وقال بدر الدين: بنيت المضمرات؛ لشبهها بالحروف في المعنى، كالإشارة."

غير أنه يسوق أحكامًا دون أن يذكر لها علّة في بعض الأحيان، ومن ذلك قوله: "وقيل إنّ التاء في (ضَرَبَتْ) فاعل، فلا استتار حينئذٍ، لكن لا عبرة بقائله." وقوله: "إذا أسند الفعل إلى مؤنث لحقته تاء التأنيث الساكنة وجوبًا... ولا التفات لمن أنشد: ولا أرض أبقل إبقالها."

٧- وللمصطلح النحوي مكانته في شرح البحرانيّ؛ ذلك بأننا وجدناه يقف وقفات مع المصطلحات، فيبينها، ويبين ما يدخلها من الاعتراضات، ثمّ يُبْرِز ما يرتضيه من رأي فيها، كلّ ذلك بأسلوب سلس رشيق، دون إطالة مملّة، أو اختصار مخل.

وقد بدا جليًّا ميل البحراني إلى استعمال مصطلح البصريين ومصطلح الكوفيين معًا، شأنه في ذلك شأن جلّ المتأخرين من النحويين؛ إذ صار من منهج أولئك أن يراوحوا في استخدام المصطلح النحوي بين مصطلحي المدرستين النحويتين.

البحراني في ميزان النقد:

على الرغم من عناية البحراني بما ينقل من آراء، واحترازه في كثير من المسائل التي يعرض لها، نجد أنه وقع في بعض الأخطاء، التي لم نهتدِ إلى تفسيرها أو تأويلها، ومن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك إعرابه جملة (مررتُ بموسى والقاضي) إذ رأى أنّ "القاضي مجرور بالعطف، وعلامة جرّه كسرة مقدّرة على الياء، منع من ظهورها الاشتغال."[٧٢]

والحق أنّ الذي منع من ظهور الكسرة هنا هو الثقل، وليس للاشتغال محل في هذه المسألة البتة.

وعندما عرّف البحراني (ربَّ) وجدناه يقول: "وربّ، بضمّ الراء والباء المشدّدة، وهي أفصح لغاتها للتصدير والتقليل، نحو: ربّ رجلٍ شجاعٍ يلقاني، وتأتي للتكثير قليلا."

والواقع أنّ حكمه بمجيء (ربّ) للتكثير بأنه قليل خلاف ما عليه النحويون؛ إذ ذهبوا إلى إفادتها التكثير كثيرًا، والتقليل قليلا، وقد عرض ابن هشام هذه المسألة مفصّلة في مغني اللبيب[٧٣].

وكذلك نجده يخطئ في مسألة المعرب بالحركات، فقد عدّها أربعة أشياء، فقال: "... والرابع: الفعل المضارع، الذي لم يتصل بآخره شيء من حروف العلة؛ لأنه يصير معربًا بالحروف، ويخرج عن الأصل."

والحق أنّ هذا حكم غريب، ولا قائل به من النحويين؛ ذلك بأن الفعل المضارع، إذا كان معتل الآخر، أعرب بحركاتٍ مقدّرة، يمنع من ظهورها الثقل تارة، والتعذّر تارة أخرى، ولا يعرب بالحروف، كما يزعم البحراني.

ومن المسائل التي نظنّ البحراني مخطئا فيها عدّه ما يقع جوابًا لـ(متى) نحو يوم الخميس، وما يقع جوابًا لـ(كم)، كالشهر والحول والأسبوع من أسماء الزمان المبهمة، وهو خطأ؛ إذ الذي يصلح أن يكون جوابا لـ(متى) أو جوابًا لـ(كم) إنّما هو المختص والمعدود، أما المبهم فهو الذي لا يصلح أن يكون جوابًا لشيء منهما، وقد صرّح النحويون بذلك في مصنّفاتهم المختصرة والمطوّلة.

وحين شرع البحراني يشرح نواصب الفعل المضارع، رأيناه يقسمها قسمين: الأول ما كان ناصبا بنفسه، والثاني ما كان الناصب هو (أن) المقدرة بعده، وقد عدّ من هذا القسم (الواو)، فقال: "والرابع: الواو أختها، والمراد بها واو المعية، ولها ما للفاء من الشروط."

ومعلومٌ أنّ حصر البحراني (الواو) في المعية غير مستقيم؛ ذلك أنّ المراد بالواو في هذا الموضع إذا كانت للجمع في الزمان، أو المعية، التي هي أحد محتملات الواو، كما نبّه على ذلك السيوطي في الهمع[٧٤].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد كان ثامن الجوازم عند البحراني هو (أيّما)، ونصّ على التشديد فيها، والحق أنّ الجازم هو (أيّ) بالتشديد وحدها، وهي حينئذٍ بحسب ما تضاف إليه؛ فإن أضيفت إلى ظرف مكان فظرف مكان، أو زمان، أو مفعول، أو مصدر فكذلك، وهي لعموم الأوصاف، كما نصّ على ذلك أرباب الصناعة، فقول البحراني، إذن، إنّ (أيّما) جازمة لا مستند له.

ولقد فات البحراني اختلاف النحويين في (ما) اللاحقة بـ(أيّ) حين ذهب بعضهم إلى أنها زائدة للتأكيد، في حين رأى آخرون أنها شرطية، جُمِعَ بينها وبين (أيّ) تأكيدًا، كما جُمِعَ بين حرفي الجر للتأكيد، وحسّنه اختلاف اللفظ[٧٥].

ولعلّ تعجّل البحراني وعدم الدقة في صياغة بعض العبارات هو ما أوقعه في الخطأ، ونلحظ عدم الدقة في مثل حديثه عن مصطلح (الكلام)، فقد نقل تعريف النحويين إيّاه؛ فهو "اللفظ المركّب المفيد بالوضع"، ثمّ عقّب على هذا التعريف، وشرح ألفاظه، فإنّ "المركّب ما تركّب من كلمتين فأكثر، نحو: عمرو ذاهب، وإنْ ذهب عمرو، وذهب بكر. وبه خرج المفرد نحو زيد.

والمفيد: ما أفاد إفادة تامّة يحسن السكوت عليها، كالأمثلة المتقدّمة."

إنّ قول البحراني (كالأمثلة المتقدمة) مدخلٌ (إنْ ذَهَبَ عمرو) في حيّز المفيد، وليس كذلك، فإنه ممّا لا يحسن السكوت عليه.

ومن صور التعجّل المفضي إلى الخطأ جمعه الظرفين (مُذْ) و (منذُ) في حكمٍ واحد، إذ قال: "وهما مبنيان على الضم"، والصواب أنّ المبني على الضم هو (منذُ)، أمّا (مذْ) فهو مبني على السكون.

وتتجلّى عدم الدقة كذلك في حديثه عن فائدة الإضافة اللفظية، وحصرها في "التخفيف في اللفظ فقط؛ إذ لا تفيد المضاف تعريفًا ولا تخصيصًا."

ففي قوله (فقط) إشكالٌ؛ فقد ذكر النحويون أنّ الإضافة اللفظية تفيد التخفيف، أو رفع القبح. أمّا التخفيف فقد أشار إليه، لكنه نفى (رفع القبح)، فلو رُفِعَ (الوجه) في مثل: (مررتُ بالرجل الحسن الوجه) لكان قبيحًا؛ لخلوّ الصفة من ضمير يعود على الموصوف، ولو نُصِبَ ففيه قبح إجراء القاصر مجرى وصف المتعدّي، وفي الجر تخلّصٌ من هذين القبيحين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وثمّة مسألة أخرى تؤخذ على البحراني في شرحه؛ ذلك بأنه كان يوهم القارئ أنه في مقام الإحاطة والحصر للمبحث الذي يتناوله، لكننا نجده لا يفي بالحصر، بل يعدد بعض الأوجه، ويترك الأخرى.

ومن ذلك تتبعه لمعاني حروف الجر؛ إذ ذكر للباء سبعة معانٍ، وضرب لكل معنى منها مثالا يوضّحه، فقال: " والباء للسببية، نحو: فزتُ بالله ورسوله، وعلوتُ الناس بِعلمي والاستعانة، نحو: كتبتُ بالقلم، وذَبَحْتُ بالسكّين، والتعدية والإلصاق، نحو: مررتُ بزيد، والظرفية نحو: زيدٌ بالمسجد، والزيادة في النفي، نحو: وما اللهُ بِغافِلٍ عمّا يعملُ الظالمون، والمقابلة، نحو: بعت الثوب بدرهمين."[٧٦]

وهذا الصنيع موهمٌ بأنّ هذه المعاني التي ذكرها هي معاني الباء لا غير، والحقُّ أنّ للباء معاني أخرى، وقد أوصلها ابن هشام في المغني إلى خمسة عشر معنى، ذكر منها البحراني هنا سبعة، وأهمل ثمانية معانٍ، هي: المصاحبة، والبدل، والمجاوزة، والاستعلاء، والتبعيض، والقسم، والغاية، والتوكيد[٧٧].

وعندما شرع يعدّد الأسماء الموصولة، ويضرب لكلٍّ مثالا، وجدناه ينص على "اللاتي و اللائي لجمع المؤنّث"، متجاهلا الموصول الثالث المستخدم للمؤنث، أعني اللواتي.

وبعد، فقد حاولت في هذه الورقة إماطة اللثام عن حاضرة من حواضر العلم في العالم العربي، كان لها دورها البارز بما صدر منها من نتاجٍ علمي وأدبي، كما حاولت الكشف عن شخصية واحد من لغوييها المتأخرين، وإبراز ما له وما عليه من خلال دراسة كتابه النحوي الموسوم بـ(المسائل النحوية في حل مشاكل الآجرومية)، فعسى أن أكون قد وفقت في تينك المحاولتين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحواشي:

[1] النويدري، سالم، أعلام الثقافة ١/ ٩٩
٢ حبيل، عبد علي، جزيرة سترة بين الماضي والحاضر / ١١١.
٣ البلادي، الشيخ علي، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين/ ٤٤
٤ المصدر نفسه/ ٤٧
٥ المصدر نفسه/ ٤٨.
٦ ينظر في هذا الشأن: لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف العصفور، وأنوار البدرين للبلادي، ومنتظم الدرين للتاجر، وأعلام الثقافة للنويدري، وغيرها.
٧ أنوار البدرين/ ١٠٢
٨ المصدر نفسه/ ٤٧
٩ الماحوزي، الشيخ سليمان، أزهار الرياض ٢/٢١٧-٢١٨.
١٠ خالص، وليد محمود، كمال الدين ميثم بن علي البحراني، ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي، العصر العباسي، ٢١-٢٣ رجب ١٤٠٩، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨٩م، ص ٤.
١١ جزيرة سترة/ ١١١.
١٢ أنوار البدرين/ ٧٢.
١٣ الزاكي، فاضل، تلامذة العلامة الشيخ حسين العصفور، بحث مقدم في مؤتمر العلامة الشيخ حسين العصفور، مملكة البحرين، ١٤-١٦مارس ٢٠١٠م، ص ٨.
١٤ ينظر: العصفور، الشيخ يوسف، لؤلؤة البحرين، ص ٢٦-٢٧.
١٥ الجدحفصي، السيد خليل، ديوان ابن يتيم/ ٣٤٢.
١٦ المصدر نفسه/ ٣٦٤.
١٧ العاملي، زين الدين، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، قم ١٣٩٦هـ، ج٣/ ٦٢.
١٨ الباقري، جعفر، ثوابت ومتغيرات الحوزة العلمية، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص ٤٨.
١٩ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، تعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩ه، ج١/ ١٣.
٢٠ البهادلي، علي أحمد، الحوزة العلمية في النجف الأشرف، دار الزهراء، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص ٢٧٦-٢٧٧.
٢١ الماحوزي، الشيخ سليمان: أزهار الرياض، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه، المجلد الثالث، الورقة ٢٤٢.
٢٢ الطهراني، أغا بزرك: الحقائق الراهنة في المائة الثامنة، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، قم المقدسة، إيران، د.ت، ص ١٧.
٢٣ الماحوزي: فهرست علماء البحرين، ٦٤، والسماهيجي: منية الممارسين، الورقة ٤٨٩
٢٤ البلادي: أنوار البدرين/ ٥٦.
٢٥ الأفندي: رياض العلماء، ج١، ص ٤٣، والنويدري: أعلام الثقافة ١/ ٣٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٦ فاضل الزاكي، العالم الرباني الشيخ ميثم البحراني، دار العصمة، البحرين، ط١، ٢٠٠٨، ص ٦٢. وفي هذا القول نظر؛ إذ لو كان كذلك، لم يتتلمذ عليه كبار علماء العراق في الفقه، وعلى رأسهم الخواجة نصير الدين الطوسي.

٢٧ شرح النهج ١/ ٣٠

٢٨ شرح النهج ١/ ٨٦

٢٩العصفور: لؤلؤة البحرين/ ٤٢٢.

٣٠السماهيجي: الإجازة الكبيرة، ٨٤-٨٩

٣١ البلادي: أنوار البدرين/ ١٠٨

٣٢العصفور: لؤلؤة البحرين نقلا عن شيخه السماهيجي في السلافة البهية في الترجمة الميثمية ٢٥٤.

٣٣ البلادي: أنوار البدرين/ ١٥١

٣٤ الماحوزي: أزهار الرياض، المجلد الثاني، الورقة ١٤٠.

٣٥ البلادي: أنوار البدرين/ ٥٢.

٣٦ أنوار البدرين/ ٨٦.

٣٧ أنوار البدرين/ ٥٢

٣٨ أنوار البدرين/ ١٠٢

٣٩ ينظر: لؤلؤة البحرين/ ٤٤٢-٤٤٦، ففيها تفصيلٌ لما جرى عليه وعلى والده وعلى البحرين من محنٍ ونوازل!

٤٠ أنوار البدرين/ ١٨٤.

٤١ الرميحي، محمد، البحرين: مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي/ ٢٣.

٤٢ الخيري، ناصر بن جوهر، قلائد النحرين في تاريخ البحرين/ ٢٨٨-٢٨٩.

٤٣ كاظم، نادر، استعمالات الذاكرة/ ١٩١.

٤٤ مرآة الأخبار، مخطوط في مكتبة الشيخ عبد الحسين الستري، الورقة ٦٥٦

٤٥ في منتظم الدرين ٣/ ٥٣: سيد السادات.

٤٦ العصفور، محمد علي، الذخاير في جغرافيا البنادر والجزاير/ ٧٠.

٤٧ المصدر نفسه/ ٦٩.

٤٨ التاجر، محمد علي، منتظم الدرين ٣/ ٥٣

٤٩ الذخاير/ ٨٧.

٥٠ المصدر نفسه/ ١١٥.

٥١ ينظر: لؤلؤة البحرين/ ٤٤٣.

٥٢ الذخاير / ٨٧.

٥٣ المسائل النحوية/ ١٧

٥٤ المصدر نفسه/ ١٧٦.

٥٥ أعلام الثقافة ٢/

٥٦ ينظر: بغية الوعاة ١/ ٢٣٨.

٥٧ ٢/ ١٧٩٢.

٥٨ المسائل النحوية/ ١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥٩ التحف النحوية/ ٢١.
٦٠ المصدر نفسه/ ٢٤، وتنظر المسائل/ ٢٠.
٦١ المسائل النحوية/ ٩١
٦٢ المصدر نفسه/ ٢٤.
٦٣ المسائل النحوية/ ٧١.
٦٤ المسائل النحوية/ ١٠٠.
٦٥ المصدر نفسه/ ١٤٣
٦٦ المصدر نفسه/ ١٥٠
٦٧ تنظر المسألة بتفصيلها في مقدمة تحقيقنا للدرر السنية/ ٥٢.
٦٨ المسائل النحوية/ ٩١
٦٩ المصدر نفسه/ ١٤٠.
٧٠ المصدر نفسه/ ١٤٤.
٧١ المصدر نفسه ١٣٩-١٤٠.
٧٢ المسائل النحوية/ ٤٣
٧٣ ينظر: مغني اللبيب ٢/ ٣٢٠.
٧٤ السيوطي، همع الهوامع ٤/ ١٢٦.
٧٥ ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٤/ ٤٢٨.
٧٦ المسائل النحوية/ ٣٩.
٧٧ ينظر: مغني اللبيب ٢/ ١١٧-١٦٨.

مصادر البحث ومراجعه:

١. الأنصاري، زكريا، الدرر السنية على شرح الألفية. تحقيق عيسى السيد جواد الوداعي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البحرين، ١٩٩٩م.
٢. الباقري، جعفر، ثوابت ومتغيرات الحوزة العلمية، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٤.
٣. البلادي، الشيخ علي، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٤.
٤. البهادلي، علي أحمد، الحوزة العلمية في النجف الأشرف، دار الزهراء، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
٥. الجدحفصي، السيد خليل، ديوان ابن يتيم، تحقيق زكريا العويناتي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القديس يوسف، ٢٠٠٤.
٦. حبيل، عبد علي، جزيرة سترة بين الماضي والحاضر، مطبعة المنار، مملكة البحرين، ط٢، ٢٠١٠.
٧. خالص، وليد محمود، كمال الدين ميثم بن علي البحراني، ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي، العصر العباسي، ٢١-٢٣ رجب ١٤٠٩، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨٩م
٨. الخيري، ناصر بن جوهر، قلائد النحرين في تاريخ البحرين، تقديم ودراسة عبد الرحمن الشقير، مؤسسة الأيام للنشر، مملكة البحرين، ط١، ٢٠٠٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٩. الدرازي، الشيخ محمد بن أحمد، مرآة الأخبار، مخطوط في مكتبة الشيخ عبد الحسين الستري، ويحتفظ الباحث بنسخة منه.
١٠. الرميحي، محمد، البحرين: مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، دار الجديد، بيروت، ط٤، ١٩٩٥.
١١. الزاكي، فاضل، تلامذة العلامة الشيخ حسين العصفور، بحث مقدم في مؤتمر العلامة الشيخ حسين العصفور، مملكة البحرين، ١٤-١٦مارس ٢٠١٠م
١٢. السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
١٣. آل طعان، الشيخ عبد الله بن أحمد، التحف النحوية في شرح الآجرومية، تحقيق ونشر دار المصطفى لإحياء التراث، قم المقدسة، إيران، ط١، ١٤١٩ه.
١٤. العاملي، زين الدين، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، قم المقدسة، إيران، ١٣٩٦هـ.
١٥. العصفور، محمد علي، الذخاير في جغرافيا البنادر والجزاير، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.
١٦. العصفور، الشيخ يوسف، لؤلؤة البحرين، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، مؤسسة آل البيت، قم المقدسة، إيران، د.ت.
١٧. كاظم، نادر، استعمالات الذاكرة، مكتبة فخراوي، مملكة البحرين، ط١، ٢٠٠٨.
١٨. الماحوزي، الشيخ سليمان، أزهار الرياض، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.
١٩. النويدري، سالم، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين خلال ١٤ قرنا، مؤسسة العارف، ط١، ١٩٩٢.
٢٠. ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية، الكويت، ٢٠٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner